العلامة محمد المختار السوسي

شذرات من حياته وفكره وأدبه

(1318-1383 هـ / 1900-1963 م)

د. المهدي بن محمد السعيدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر بأگادير



بمناسبة الذكرى الستين لوفاته رحمه الله

حول سلسلة الدراسات والأبحاث الفكرية

تيسر لي بحمد الله تعالى - خلال مساري العلمي منذ أول مقالة علمية نشرتها [1] خلال إعداد رسالتي لنيل شهادة الدراسات العليا، إلى أيامنا القريبة هذه - إنجاز ما يربو على 200 دراسة وبحث ومقالة، شاركت بها في ندوات وملتقيات محلية وجهوية ووطنية ودولية، ونشرت عددا منها ضمن أعمال الندوات، أو مجلات ودوريات، أو صحف وجرائد، وقد دارت كل تلك الأبحاث والدراسات حول المحاور التي اهتممت بدراستها، سواء في تخصصي الدقيق في الأدب المغربي، أو في الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية والاجتماعية والثقافية، وقد حرصت على جمع هذه المشاركات وتوثيقها، وفكرت مرار ا في جمعها، ونشرها في كتب تلم شعثها، وتحفظها من الضياع، وتيسر للباحثين والمهتمين وسائر القراء الراغبين، الوصول إليها بأقل كلفة وأيسر جهد.

وقد تطلب مني جمع المقالات والأبحاث جهدا كبيرا ووقتا طويلا، ورحم الله الأستاذ محمد المنوني الذي تحدث عن ذلك، فقال:

«المقالات المتفرقة في المجلات، في الحقيقة كأنها في قعر بئر.» [2]

وقد أعدت رقن المقالات والأبحاث وتصنيفها، وضم المتشابهات بعضها إلى بعض، ثم مراجعتها وتحديث المعلومات المتضمنة فيها، والمصادر والمراجع المعتمدة فيها، خاصة تلك التي كانت مخطوطة أو مرقونة قبل سنوات، ثم صارت مطبوعة منشورة الآن، فتجمعت لي من ذلك كله نحو عشرة كتب، بدأت إصدارها متتابعة بحول الله، ووضعت لكل كتاب مقدمة ضافية، بينت فيها السياق المعرفي الذي ألفت فيه المقالات والأبحاث المتعلقة به، وحيثيات القضايا التي اهتمت بها وعالجتها.

لقد كانت الدراسات والأبحاث التي جمعتها في هذه الكتب، نتاج انشغال واشتغال بمجموعة من القضايا الفكرية والثقافية والعلمية والمعرفية، التي تهمم لها الباحثون في

---

[1] - هي مقالة «أبو زيد عبد الرحمان التَّمنارتي الفقيه الأديب» نشرت بمجلة دعوة الحق العدد307، رجب 1415هـ/دجنبر1994، صص: 99-110.

[2]- حوار مع الأستاذ العلامة محمد المنوني، مجلة أمل، مج2، ع5، ص:136، سنة 1994.

المغرب خلال الثلاثين سنة الماضية، سواء في الأدب المغربي السوسي، وجمع نصوصه والتعريف بأعلامه، أو العلم العربي في سوس، وتذييل عمل عمنا العلامة محمد المختار السوسي في تخليد آثاره، والترجمة لأعلامه وأعمالهم، أو في الثقافة الأمازيغية السوسية، ودراستها دراسة علمية تعرف على وجه الخصوص بالثقافة العالمة، وتكشف القناع عن تآليف علماء سوس في هذا المجال، حينما حرروا مؤلفات في العقيدة والفقه والحديث والسيرة والوعظ والرقائق والنصح والتوجيه، كل ذلك بلغتهم الأمازيغية السوسية العذبة على اختلاف لهجاتها وأساليبها، أو في الاهتمام بعلاقة الثقافة العربية بالتقنيات الحديثة للمعلومات، وتأثرها بالتحولات العميقة التي تشهدها وسائل تداول المعلومات وتخزينها، والتعامل والتفاعل معها، أو في العناية بالتاريخ المحلي لمنطقة سوس خاصة، وللجنوب المغربي عموما، ودراسة وثائقه ونصوصه، والتعريف بآثاره ومآثره، أو دراسة الظواهر الثقافية والقضايا الفكرية وعلاقتها بالعصر وتحدياته وتحولاته، وغير ذلك من الدراسات والأبحاث.

ولما كنت بصدد تصنيف هذه الكتب وتنظيمها، بدا لي إصدارها في سلسلة متتابعة، طالما أن الجامع بينهما أنها في أصلها مقالات ودراسات وأبحاث مستقلة، لم تؤلف أصلا لتكون مجموعة في أسفار، غير أن ما بينها من تداخل وتمساك، وانسجام واتساق، جعلها جديرة بذلك، لتجمع الحسنيين الصيانة من الضياع، وبيان فكر مؤلفها وتصوراته، والهم المعرفي الذي شغله خلال سنوات اشتغاله بالبحث العلمي واهتمامه بالشأن الثقافي المغربي الذي مازال مستمرا بحمد الله وفضله.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم، وأن يعمّ الانتفاع بهذه السلسلة الجديدة، وبأختها السلسلة السابقة الخاصة بالرسائل السوسية المحققة، التي ستستمر بحول الله في الصدور، راجيا من الله تعالى التوفيق والسداد، والعون والإمداد، لاستكمال أجزاء هذين المشروعين العلميين، وغيرهما مما ينتظر تحريره وصدوره من كتب وسلاسل، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل، والحمد لله رب العالمين.

استهلال [1]

هذا كتاب جمعت فيها دراسات وأبحاثا حررتها على مدى ربع قرن، ونشرت بعضها. وبقي بعضها غير منشور، وقد تتبعت فيها جوانب من فكر وأدب عمنا العلامة محمد المختار السوسي رحمه الله، مالئ دنيا التراث المغربي، وشاغل المغاربة المحبين للتراث، بل وحتى المناوئين له، ممن هم على خلاف ما آمن به ودعا إليه، من التمسك بالدين، والاعتزاز بالإسلام، ومكافحة الانحلال، ومجانبة السفاسف وتافه الأفكار، المقتبسة من الاستعمار وأذنابه في الداخل والخارج، وهؤلاء إذ يفعلون ذلك طمعا في الاقتباس من شهرته، واستغلالها لأغراضهم الخفية، إنما يذمون أنفسهم وما هم فيه، ويشهّرون بتوجهاتهم، معتقدين أن الناس عُمي عن مقاصدهم، صمّ عن نياتهم، والله تعالى يقول: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ [2]

لقد نشأنا في عائلتنا الكبيرة وفي أسرتنا الصغيرة على ذكر العلامة الفقيه العمّ المختار، وذكر حياته وأعماله ونضاله، خاصة أن الوالد رحمه الله محمد بن أحمد السَّعيدي لقيه مرات، فعندما كان يحفظ القرآن صغيرا بكُتّاب مسجد أيت سليمان من دُوگادِيرْ إِلْغْ، والعلامة منفي إلى مسقط رأسه، كان مدرّرهم يرافقهم كل جمعة إلى الزاوية الدرقاوية، ليقرؤا سلكة من القرآن الكريم على قبر الشيخ الإلغي، فكان العلامة السوسي يحضر التلاوة ويتلو معهم القرآن الكريم، ويختم المجلس بالدعاء، فيقوم التلاميذ والوالد بينهم يسلمون عليه ويقبّلون يمناه ورأسه، كما رافقه بعد ذلك بسنوات في بعض أسفاره، وزاره في منزله في الرباط مرتين، كلتاهما كانتا بدعوة من العلامة، وقد حدثني الوالد أن الفقيه كان يخطط لافتتاح مدرسة أو ما شابهها بالرباط، ربما قصد اختيار مجموعة من شباب مغرب الاستقلال، يدرسهم ويربيهم ويكونهم، ولبث الوالد ضيفا عليه بالرباط أياما، قبل أن يستدعيه يوما

---

[1]- نشر أصله في موقع جمعية محمد المختار السوسي على الشبكة العالمية للمعلومات سنة 2015، بمناسبة مرور 50 سنة على وفاة العلامة بعنوان: سنا الأنوار من ذكرى العلامة العمّ المختار.

[2] - آل عمران 68.

ويقول له: إنا كنا نؤمل أمرا ولكنه لم يتيسر الآن، فعد إلى دراستك، والخير فيما اختاره الله،[1] أما الثانية فحينما مرَّ العلامة مرجعه من سوس بمدرسة تُّمانار الحاحية والوالد هناك للدراسة، فأمره أن يرافقه إلى الرباط فساعفه الوالد، فمرّا بالبيضاء ثم وصلا العاصمة، وخلال الرحلة كان الفقيه يذاكر الوالد في مسائل فقهية وأدبية وتاريخية، مستعينا بكتب كثيرة كانت بسيارته، وفي الغد اقترح الفقيه على الوالد التوظيف بوزارة العدل، قائلا له: يكفيك ما درست وحصلت من العلوم، والوقت الآن للعمل لتقوم بنفسك ووالديك وإخوتك، وقد كان الوالد رحمه الله كثيرا ما يسامرنا بذكر ما رآه من الفقيه في رحلتيه، وما حادثه به وما تحدثا بشأنه من قضايا العلم والفكر والأدب، وعن مؤلفاته الكثيرة، ومن ترجم لهم من العلماء من أهل بلدنا وغيرهم، رحمهم الله أجمعين، وكانت أحاديثه تمتعنا وتزيدنا إعجابا بالعلامة، وتقديرا لشخصيته وأعماله.

ثم اطلعت بعد ذلك على الترجمة التي حررها العلامة السوسي لأسرتنا منذ أجدادنا الأعليين المشتركين إلى جد الوالد عم العلامة المختار، الفقيه إبراهيم بن أحمد الطالبي[2] السعيدي، وابنيه جدّنا أحمد وشقيقه عبد الله العلامة الكبير شيخ العلامة المختار نفسه، ثم ترجمة الوالد كذلك في الجزء الثاني للمعسول، تذييلا لترجمة عمه،[3] أما كلمته العظيمة إلى الإلغيين آخر تراجم أعلامهم في الجزء الثاني من المعسول، فقد كانت رسالة خالدة عابرة للأزمان، اتخذناها دستورا لحياتنا العلمية والمعرفية، منذ عرفنا مقصدنا من الحياة،

---

[1] - وقال الوالد بصدد ذلك رحمه الله، إن أحد الإلغيين العاملين مع العلامة السوسي رحمه الله، أخبره أن الفقيه كان يراوده مشروع افتتاح مدرسة علمية بالرباط، ويبدو أن ذلك لم يتيسر له.

[2] - وسبب هذا اللقب أننا نعرف في البلد بأيت الطالب، نسبة إلى جدنا الأعلى الطالب محمد المتوفى سنة 1290هـ، وكان هذا لقب جميع فروع الأسرة الكبيرة إلى أن اشتهر الحاج علي الدرقاوي وأبناؤه بلقب الدرقاويين، وبقي لقب أيت الطالب لصيقا بنا نحن أبناء إبراهيم بن أحمد السعيدي.

[3] - في ص: 342 وما بعدها، وتتميما لتلك الترجمة، انتقل الوالد رحمه الله إلى إيغْرْم كاتبا للضبط بمركز القاضي المقيم، ثم إلى تارودانت سنة 1973 كاتبا للضبط، ثم أمينا للصندوق حتى تقاعده سنة 1994، ثم تفرغ لشؤونه الخاصة وللمطالعة، وقد أدى ما عليه، فزوج بناته الثلاث اثنتان منهما حصّلتا الإجازة من كليتي الآداب وكلية العلوم بأكادير، وتخرج أولاده الذكور من الجامعة أكبرهم حصل دكتوراه الدولة (وهو كاتب السطور) واثنان (عبد الحي وأحمد) شهادات الدكتوراه في الأدب، وأصغرهم (فؤاد) مهندس دولة في الإعلاميات، توفي الوالد رحمه الله صبيحة يوم الإثنين فاتح جمادى الثانية 1433 موافق 23 أبريل 2012.

وأهدافنا منها، وطموحنا لتحقيق ما رجاه أسلافنا منا، وهو ما سطره العلامة السوسي في تلك الخاتمة المسكية العطرة، فقد كنا نعتقد أنه لم يكتب ذلك عبثا، وإنما رغبة في أن تطلع عليه الأجيال اللاحقة، التي كانت في سجف الغيب عندما كان يحرره كلماته تلك، وتتخذه نهجا تسير عليه في حياتها، وتحقيق طموحها العلمي في سائر أنماط المعرفة وجوانبها. لقد كانت الرسالة منتهى اعتزازنا وفخرنا، فقد شعرنا أن العلامة العمّ المختار كان يخاطبنا نحن الأحفاد وأبناءهم من وراء الغيب، يحضّنا على العمل والاجتهاد لإدراك المعالي التي سطرها سلفنا الكريم، ويحثنا على الجمع بين القيم الإسلامية واللغة العربية لغة الدين والحضارة التليدة، وتفهُّم عصرنا ومحاسنه، وإدراك المجد فيه، كما أدركه أجدادنا في عصورهم، قال رحمه الله:

«إن أولادنا اليوم مضطرون أن يشاركوا في كل ميدان من ميادين المعرفة وأن يحاولوا كما يحاول أهل جيلهم أن يتقنوا من لغات أخرى غير العربية، ولكن أيحملهم ذلك على الإعراض عن إتقان العربية التي هي مفخرة أجدادهم وأسس مجدهم الشامخ؟ لا أكذب قومي - والرائد لا يكذب أهله - إن الزمان قد استدار، وإن مجد اليوم غير مجد أمس وإن الأفراس في المغرب اليوم لتجري ملء فروجها إطلاقا، فإن شمرتم يا أهل إِلْغَ شاركتم بكل عزيمة، وبذلتم من الجهود ما عرف به من قديم الإلغيون، فإن مكانتكم لا تزال لكم محفوظة بين الماجدين،وما ذلك إلا بالإقبال التام على التهام العلوم كيفما كانت، مع الحرص على إتقان اللغة العربية، وعلى المحافظة على الدين المتين.» (1)

لقد زادنا كل هذا فخرا بالعم المختار، إضافة إلى أعماله وإنجازاته العظيمة التي ما فتئنا نشهد اهتمام الناس بها وتقديرهم لصاحبها، فألفوا عنه الكتب وعقدوا الندوات وحرروا المقالات.

وفي سياق هذا التقدير الذي نشأنا عليه صغارا، واستمر معنا كبارا، كنت كتبت خاطرة بمناسبة حلول الذكرى 52 لوفاة العم العلامة قبل تسع سنوات، وعنَّ لي آنذاك أن أبحث في الشبكة العالمية للمعلومات، ومن خلال بعض تطبيقاتها، عن جديد ما نشر حول هذا العلم المغربي والإسلامي الكبير، اعتبارا لأهمية هذا المجال في نشر المعرفة العصرية، واتكاء الناس عليه في نشر المعلومات والبحث عنها. حتى صارت تمثل طبيعة التفكير في مختلف الأقطار والأزمان، واهتمامات الناس ومشاغلهم وهمومهم.

---

[1] - المعسول390/2.

وقد استعنت بمحرك البحث، وخطر لي أن أبحث في مختلف أبوابه، فمررت بالبحث العام، فوجدت 181 ألف إحالة على اسم العلامة السوسي، محمد المختار السوسي و125 ألف عند كتابة اسمه بالحروف اللاتينية Mokhtar Soussi اشتمل كل ذلك عددا هائلا من المقالات والدراسات والإشارات لشخصه الكريم، ترجمة لسيرته، أو تناولا لفكره، أو أعماله في كتب ورسائل وأطاريح جامعية، أو شهادات معارفه وتلامذته، أو اقتباسات مما كتب عنه، أو كتب هو عن الناس، محررا لسيرته بأسلوب غير مباشر كما ذكر هو نفسه حينما سأله أحد المهتمين قائلا لقد كتبت عن كثير من الناس، فماذا كتبت عن نفسك؟ فأجاب كل ما كتبته عن الناس، إنما يتضمن ترجمة نفسيتي وفكرتي.

ثم انتقلت إلى مجال الصور، فوجدت عددا كبيرا من صور الفقيه المرحوم في مختلف أطوار حياته، شابا حدثا ثم في عنفوان الشباب، ثم كهلا، ثم شيخا في مقدمة الشيخوخة حينما اختطفته المنون من بلد أحوج ما كان لحكمته وحنكته، كما وقفت على صورة للطابع البريدي الصادر منذ بضع سنوات تكريما له، ورأيت هناك أيضا عددا كبيرا من صور شيوخه وأبنائه، وتلامذته وأصدقائه، ومحبيه وقراء كتبه ودارسي مؤلفاته، وصور كتبه ومخطوطاته، ومسقط رأسه، وهكذا كان المختار دائما من الناس وللناس مخلصا للود، متذكرا للإخوان حتى في أحلك اللحظات، محافظا على العهد وإن بعدت الديار وشطّ المزار.

ثم انتقلت إلى مجال الفيديو وفيه أشرطة كثيرة من برامج تلفزيونية أنجزت حول هذا العلامة الوطني الفريد، بالعربية والأمازيغية، منذ انتبه المغاربة إلى أهمية تراثه المعرفي المتنوع بدءا ببرنامج حضور وانتهاء ببرنامج الرواد وغيره، إضافة إلى تسجيلات دروسه الوعظية التي سجلها بالإذاعة الوطنية خلال أشهر رمضان من سنوات 1960 إلى 1963م، كما تضمنت المرئيات تسجيلات لمختلف الندوات التي شهدتها مختلف مناطق المغرب حول العلامة السوسي ومنها نوادر مثل ندوة فاس التي نظمتها جمعية إيليغ سنة 1990، واشتملت على مشاركات فطاحل العلم والتاريخ والأدب في المغرب.

ثم انتقلت إلى باب الأخبار، فوجدت العلامة موجودا في ثناياها، وقد لفّه اللحد منذ 52 سنة، ومن جملة 949 خبرا، وجدت أحداثا ووقائع تتعلق بمؤسسات حملت اسم الفقيد من ثانويات ومستشفيات ومدارس، وأخرى ارتبطت برفاق دربه في الكفاح والنضال الوطني، ولمّا كان من القضايا الساخنة – بلغة الإعلام – في هذه الأيام قضية المهدي بن بركة، وقد

خلدت ذكرى اختفائه المبهم في حفل كبير تليت فيه رسالة ملكية سامية، فقد ورد ذكر العلامة السوسي وكتابه معتقل الصحراء، وما دبجه في ترجمة هذا الرجل - ذي المصير الغامض - أثناء ترجمته لمعتقلي أغبالو ن كردوس. كما ورد ذكر السوسي في السجال الدائم الذي لا ينقطع بين المتعصبين للأمازيغية الذين لا يرون الحق إلا في تحريف هوية المغرب عن حقيقتها، ومجادليهم من المنصفين الذين يضعون الهناء موضع النقب مستشهدين ومستندين إلى علماء المغرب العظام، الذين نبغوا في علوم العربية والإسلام، مع أنهم رضعوا لبان الأمازيغية من ثدي أمهاتهم، وفي طليعتهم العلامة السوسي. كما ورد ذكر السوسي في بعض المواقع التي أوردت خبر صدور كتب ومؤلفات مثل كتاب «أعلام وأقلام القصر الكبير» لمؤلفه محمد العربي العسري، لكونه اتبع منهج السوسي وزملائه من مؤرخي مرحلة الحماية في التأريخ الجهوي للمغرب مدنه وقراه وجهاته.

ثم انتقلت إلى الخرائط، وكانت المفاجأة أنها لم تخل من ذكر العلامة السوسي، فهذا مسجد باسمه بأيت ملول بعمالة إنزكان أيت ملول، وهذا سد بأولوز شرق تارودانت، وهذا مستشفى بتارودانت، وهذه دار الشباب في منطقة تارّاست بإنزكان، وهذه إعدادية بشارع الرياض بمدينة القنيطرة، وهذه مصحة خاصة بأگادير، وتلك صيدلية بتزنيت، وذاك شارع بالمحمدية وآخر بإنزكان، وتلك زنقة بالرباط وهلم جرا..

أما في مجال الكتب فحدث ولا حرج، فعند البحث نعثر على 450 إحالة على كتب باللغة العربية و775 إحالة في اللغات الأوربية وعلى رأسها الفرنسية، منها كتب العلامة المطبوعة وأحيانا المخطوطة، كما نجد الكتب التي ترجمت له أو التي ورد ذكره فيها عرضا، وكذلك أعمال الندوات والأيام الدراسية التي نظمت حول جانب من جوانب فكره، وهي كثيرة، والكتب التي تناولت بالدراسة والتحليل مختلف نواحي الحياة المغربية في القرن العشرين وبعده، سياسيا واقتصاديا وثقافيا وفكريا ودينيا.

هذه جولة سريعة وسطحية في الشبكة العنكبوتية تخبرنا بمدى الاهتمام بالعلامة السوسي وجوانب نشاطه العلمي، الذي ملأ دنيا المفكرين، وشغل الباحثين وعموم المثقفين، وقد شغف الناس بالكتابة عنه وحوله، فكانوا ما بين من يعدد أياديه البيضاء وإحسانه للثقافة المغربية والتراث الوطني، وبين من ينظر إلى عمله وشخصيته نظرة ضيقة لا تتجاوز فكره القاصر القصير، وقليل ما هم ولله الحمد والمنة، قلت هذه نظرة سريعة في الشبكة

العالمية، لأن الجانب المبحوث فيه هو الظاهر الممكن الوصول إليه، فمحرك البحث لا يقوم بإظهار النتائج في كثير من مواقع التواصل الاجتماعي، كما الأنترنيت العميق، يضم آلاف قواعد البيانات، وملايين النصوص المغلقة دون التصفح المباشر المجاني أو المؤدى عنه، إلا لمن كان مسجلا فيها، ومنها دراسات وأبحاث كثيرة جدا حول العلامة السوسي بلغات مختلفة وفي دول متعددة، دون أن ننسى الإشارة إلى انتشار كتبه في مختلف مناطق المعمور من المكتبات الأمريكية والكندية المشهورة غربا وحتى مثيلاتها في اليابان شرقا مرورا بأوروبا وآسيا.

هذا الكم الهائل من النصوص والإحالات والكتب والمقالات والصور والأشرطة المرئية، كلها تقف لتتحدث عن العلامة المختار، بعد أن استراح من الدنيا وأهلها، وانتقل راضيا مرضيا – بحول العلي القدير- إلى جوار ربه، وقد صار جزءا من التاريخ الذي كتب ما استطاع من فصوله، وصار إنسانا مذكورا مشكورا، تحرر عنه المقالات وتدبج القصائد وتنجز الأبحاث والأطاريح على خلاف ما ظن صديقه الأستاذ العابد الفاسي، الذي ذكر العلامة السوسي عنه ما يلي:

«أذكر يوما.. أنني قلت له في معرض شيء - وأنا أداعبه - أرأيت ما سيقول فينا من بعدنا، وكيف يتصوروننا، فقال: أبَلَغ بك الاعتداد بنفسك، حتى تحسب أن من بعدك سيُلْقون عنك محاضرات؟ وينشؤون عنك مقالات؟ وتصبح موضوع أخذ ورد بين الباحثين حول شخصيتك؟ فقلت له: ما أقسى نقدك للكلام.» [1]

حقا وقع كلما اعتقد الأستاذ الفاسي أنه من باب الاعتداد والغرور، فقد انتشرت كتب السوسي وتلقّفها الناس، وطبعت حتى خارج المغرب، واحتال المحتالون لطبعها خفية عن ذوي الحقوق، ثم قدّر لبعضها أن يصور وينشر على الشبكة العالمية، فأصبح متاحا في كل زمان وفي كل مكان، كما حررت مقالات كثيرة عنه، ليس في المغرب وحده، بل في البلاد العربية، ونشرت في العراق وقطر والإمارات والسعودية، وفي أوربا، وألقيت محاضرات كثيرة لا تعد ولا تحصى في الجامعات المغربية والمشرقية، والغربية والشرقية القصيّة، وحرّرت

[1] - ذكريات، ص:20، ومن عجيب تصاريف الأقدار أن كل ما أنكره الأستاذ العابد الفاسي وقع بحذافيره، فقد ألقيت محاضرات عن العلامة السوسي أكثر من أي عالم آخر من جيله، وألفت كتب، وأعدّت رسائل جامعية وأطاريح، وكثر النقاش والأخذ والرد، بل صارت الاتجاهات الأيديولوجيا تتناقش حوله وفكره، وكل يحاول إمالته لجهته، فسبحان الله العظيم.

أطاريح كثيرة، وأصبح العلامة السوسي موضع أخذ ورد بين الباحثين، ففي مجال التاريخ، نقاش بين من يرى فيه صاحب منهج متميز عن جميع أقرانه، يتفوق على أحدث مناهج الكتابة التاريخية، ومن يراه - كما قال عنه أحد رفقاء الكفاح - مجرد فقيه في الأجرومية، وفي مجال الفكر والدين، جدال بين من يجده من رواد السلفية الوطنية، المحاربة للخرافات، المقاطعة للصوفية، وبين من يعده فقيرا صوفيا منغمسا في الطرقية، وبين من يقف حائرا مستفسرا عن طبيعة جمعه بين السلفية والتصوف، مجتهدا في تقديم تفسير لما يظنه غامضا من مواقفه وأفكاره في الجانبين معا.

ليت شعري ماذا سيكون موقف الأستاذ العابد الفاسي، لو اطلع على أيامنا هذه، ورأى كيف يهتم الناس بالعمّ المختار، وفكر العمّ المختار، ومؤلفات العمّ المختار، في المغرب وخارجه، وكيف انكبّ الباحثون في مختلف مجالات المعرفة على التنقيب في تراثه الضخم، وكيف جاراهم الأجانب في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وأمريكا وكندا واليابان؟ وكيف صار السوسي ملء السمع والبصر، بينما انطوى ذكر الأستاذ العابد الفاسي فلم يعد يعرفه أحد، إلا قلة من الباحثين المتخصصين؟ ولعل الأستاذ مصطفى الغربي الموظف سابقا بالخزانة العامة بالرباط، كان أكثر إنصافا للعلامة السوسي وأعماله، فيحكي عنه الأستاذ الدكتور الحسن العبادي «أن العلامة المختار السوسي لا يغيب عنه ولو يوما واحدا إذا كان حاضرا بالرباط، وكان يتحفه بأجزاء المعسول فور خروجها من المطبعة، قال: فقلت له مرة: هل تعلم أن كتابك هذا.. سوف يتناسل منه دكتورات كثيرة، فقال لي: كيف ذلك، وأنا شخصيا لا أحمل الدكتوراه، فقلت له: إنك فوق الدكتوراه بدرجات عالية، ولكن إن مدّ الله في عمرك فسوف ترى ذلك، فكان الأمر كما قال السيد مصطفى الغربي، فكل الدكتورات التي نوقشت في الجامعات والتي تتعلق باللغة العربية أو الأدب العربي أو غير ذلك من المعارف، سواء تعلقت بسوس أو بالمغرب عموما إلا وتستقي من معين المعسول.»[1]

[1] - قطائف اللطائف، ص:12.

ومن هذه الزاوية كذلك نظر الشاعر مُحَمَّد العثماني الذي كان أكثر تقديرا لأعمال العلامة السوسي، وأكثر شعورا بأهمية منجزاته خاصة موقفه من التاريخ، وموقف التاريخ منه، حينما قال في قصيدته الفارسية [1] الرائقة: [2]

وفـــاء يقـــوم اليـــوم قطـــرك يـــذكر ... قيامـــك بـــالإعلان عنـــه ويشـــكر

يناجيـــك إجـــلالا ويحمـــل باقـــة ... يضـــمخ مســـراها ثنـــاء معطـــر

تـــداعت نواديـــه لتشـــهد مـــا ســـدت ... يـــداك لـــه مـــن معلـــم لا يقـــدر

فمـــن غمـــرة التـــاريخ قمـــت بنشـــله ... وفي زحمـــة الأخطـــار كنـــت تشـــمّر

تســـابق أحـــداث الزمـــان ولـــم تكـــن ... لإنـــذاره ترتـــاع وهـــو يزمجـــر

إلى أن يقول عن عمله في التاريخ وتدوين الأخبار والآثار:

جلســـت إلـــى التـــاريخ فـــي عرصـــاته ... وألواحـــه منصـــوبة لـــك تنظـــر

فكنـــت مـــدى خمـــس وعشـــرين حجـــة ... مُصاقبهـــا تُمســـي لهـــا وتبكّـــر

تنســـق أحـــداث الحيـــاة منقّبـــا ... ســـوى حـــدث قـــد كنتـــه يـــوم تقبـــر

مـــؤرخ أقـــوام مـــؤرخ نفســـه ... وإن لـــم يـــرد فيـــه ســـجل ودفتـــر

يخـــبّر عـــن حـــيّ وميْـــت كأنمـــا ... علـــى غفلـــة عـــن حالتيـــه يخبـــر

على أن كثيرا من معاصري العلامة السوسي لم يدركوا أبعاد عمله ولا عرفوا مغازيه العميقة، فلم يقرأوا كتاباته كما ينبغي ولا استفادوا منها كثيرا، إلا أفذاذا منهم، ولعل في طرفة عجيبة رواها لي الأستاذ عبد الوافي رضى الله نجل العلامة عبرة عميقة، قال:

«لقيت أحد معارف والدي، فقال لي من جملة ما قال إنه واجه أزمة مالية في بداية سنوات الستين، فلقي الفقيه الذي علم بأمره، فأراد أن يساعده دون إحراجه، فأهداه كتاب

---

[1] - سميت كذلك لأن الشاعر خاطب العلامة السوسي في بعض أبياتها وناده بـ«الفارس الذي مضى.»

[2] - منجزات جمعية علماء سوس 2/161-162، منشورات جميعة علماء سوس 1414 / 1994، وشعر محمد العثماني جمع ودراسة، إبراهيم إيد منصور، ص:320، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 2011/1432، وكنت درّست هذه القصيدة لطلبة شعبة اللغة الإنجليزية في مادة الثقافة العربية، فاستعرضناها تعريف بناظمها وتحليلا لموضوعها واستعراضا لأفكارها وبنيتها الفنية، وذلك أواخر القرن الماضي.

سوس العالمة، بعد أن دس بين صفحاته مبلغ 100 درهم، وهي مبلغ ذو بال آنذاك، قال: للأسف الشديد لم أقرأ الكتاب ولا تصفحته، إلا بعد مرور أزيد من عشر سنوات، ففوجئت بالورقة النقدية بين صفحاته، وعلمت ما فعل الفقيه، وتأسفت أسفا شديدا، لأنني كنت في حاجة ماسة إلى المبلغ في عزّ أزمتي المالية، ولم أجده إلا بعد أن فقد جزءا غير يسير من قيمته المالية بسبب تضخم الأسعار.»

هكذا نرى الرجل حزينا على عدم اكتشاف المبلغ المدسوس في الكتاب، لكنه لم يحزن على فوات مطالعته والاستفادة مما فيه من معلومات وأخبار وأفكار، كان ممكنا أن تغير حياته للأفضل، والحق أن العلامة بنى عمله على حسن الظن بالرجل بأنه سيقرأ الكتاب، لكن هذا أخلف الظن فعوقب بالحرمان.

والحقّ أن كثيرا من الناس ساروا هذا المسار فأغفلوا مؤلفات العلامة السوسي بعد وفاته، ولم يهتموا باقتنائها، ولا بمطالعتها والاستفادة منها، والدليل على ذلك بقاء الكتب المطبوعة معروضة في المكتبات مدة طويلة ناهزت عشرين سنة، خاصة كتاب المعسول، وبقي الأمر كذلك حتى عمل بعض أقارب الفقيه على ترويج كتبه ونشر فكره في الجامعات وبين أساتذتها، ذلكم الأستاذ عبد الله بن الحبيب درقاوي ابن شقيق العلامة السوسي وزوج ابنته، الذي كان أستاذا بالمركز التربوي الجهوي بالرباط،[1] وكان حريصا على تنشيط الدراسات حول العلّامة خاصة في الجانب التربوي، وقد ذكر لي مرة حيثيات عمله، فقال:

«رأيت مؤلفات العلامة العم المختار لا يذكرها كثيرون ولا يهتمون بها، ولا تكتب عنها مقالات ولا دراسات، فهداني التفكير إلى أن سبب ذلك عدم توفر الأساتذة عليها، فصرت أتصل بالأساتذة الجامعيين في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بشعب العربية والتاريخ والدراسات الإسلامية والفلسفة، وأعرض عليهم شراء المؤلفات بالتقسيط المريح، خاصة كتاب المعسول، وعندما صارت لديهم أخذوا يقرؤونها، ويكتشفون خلالها فكر العلامة العم المختار، ومنهجه وتاريخه، فصاروا يكتبون المقالات والدراسات عنه، ويقترحون موضوعات الأبحاث على طلبة الإجازة ثم الدبلوم، ثم صارت تعقد عنه الندوات واللقاءات، وبذلك راج فكر العلامة في الجامعة المغربية من خلال كلية الآداب بالرباط.»[2]

[1] - أنجز قبل ذلك رحمه الله رسالته للدبلوم في موضوع شعر محمد بن الطاهر الإفراني.

[2] - أخبرني بهذا عندما كنت أزوره بالرباط أوائل سنوات التسعين من القرن الماضي، ببيته رحمه الله بضاية الرومي بالرباط، فنقضي الساعات في المذاكرة حول تراث العلامة المختار رحم الله الجميع.

هذه بعض مشكلات تلقِي فكر العلامة السوسي من أهل جيله، والجيل الذي بعده من تلاميذه، ولعله كان يعلم ذلك، فيشير إلى أنه إنما يجمع ويكتب لجيل الأولاد والأحفاد، حيث قال:

«نحن نوقن أنه سيأتي يوم يثور فيه أولادنا أو أحفادنا ثورة عنيفة ضد كل ما لا يمت إلى غير ما لآبائهم من النافع المحمود، ثم يحاولون مراجعة تاريخهم ليستقوا منه كل ما في إمكانهم استدراكه. فلهؤلاء يجب على من وفقه الله من أبناء اليوم أن يسعى في إيجاد المواد الخام لهم في كل ناحية من النواحي التي تندثر بين أعيننا اليوم.»[2]

وبعد، فهذه مجموعة دراسات ومقالات وأبحاث حول تراث العمّ المختار رحمه الله، كنت نشرت بعضها في مجلات وجرائد وطنية وفي أعمال ندوات مختلفة، والآن يسّر الله تعالى إخراجها، في هذا الكتاب الذي آمل أن يكون الأول من عدة كتب أخصصها بحول الله تعالى للعم العلامة وأعماله الفكرية، إسهاما في العناية بتراثه، وكشف جوانبه، وإثارة انتباه المحبين والمهتمين والباحثين إليها، لعلهم يزيدونها تمحيصا ودراسة وبحثا واستفادة، وإبرازا لجهود هذا المفكر العبقري الفذّ القليل النظير، في الحفاظ على الهوية، والسعي لدرء مخاطر الطمس والتغيير عنها، لعلها تكون مستندا لخطط التنمية الفردية والجماعية، لبلاد راغبة في شق طريقها في دنيا الناس المتصارعة ، التي تتخبط فيها الأقدام، وتتيه الخطى.

أشكر في الختام كل من ساعدني في تحصيل مخطوط أو وثيقة أو معلومة أو إفادة، تقبل الله تعالى عملهم وجزاهم خيرا كثيرا،خاصة الأستاذ المرحوم المهدي الدرقاوي الذي مكنني من نسخ مجموعة وثائق عمه العلامة المختار، وكذا الأستاذ عبد الوافي الذي أمدني ببعض الصور، ونسخة من مخطوط ترجمة شرح الأربعين حديثا النووية إلى الأمازيغية السوسية لوالده، والأستاذ عبد اللطيف السملالي الذي ما فتئ يزودني بكل ما تيسر له من تراث عمنا الأستاذ إبراهيم الإلغي، كما أشكر موظفي مصلحة الإيداع القانوني بالمكتبة الوطنية جزاهم خيرا.

رحم الله العلامة العمّ المختار، ونوّر قبره بأنوار الرِّضى والقبول، وجلّل جدثه بشآبيب المغفرة والرحمة والرضوان، هو ورجال ذلك الجيل العالم العامل المخلص، وعوضنا من أمثاله خيرا كثيرا، ورزقنا السير على منوالهم، وتتبع خطاهم، آمين والحمد لله رب العالمين.

---

[2] – المعسول 1/د.

الفصل الأول

محمد المختار السوسي

طيبته

حياته وشخصيته

فهرس المحتويات



صدر من سلسلة الدراسات الفكرية

① تجليات الإبداع والتجديد في الأدب العربي بسوس.

② محمد المختار السوسي، شذرات من حياته وفكره وأدبه.

ويليها بحول الله تعالى قريبا:

③ مدارس سوس العتيقة، من الأصول التاريخية إلى مخاطر الاندثار.



في هذا الكتاب

لعل الأستاذ مصطفى الغربي الموظف سابقا بالخزانة العامة بالرباط، كان أكثر إنصافا للعلامة السوسي وأعماله، فيحكي عنه الأستاذ الدكتور الحسن العبادي «أن العلامة المختار السوسي لا يغيب عنه ولو يوما واحدا إذا كان حاضرا بالرباط، وكان يتحفه بأجزاء المعسول فور خروجها من المطبعة، قال: فقلت له مرة: هل تعلم أن كتابك هذا.. سوف يتناسل منه دكتورات كثيرة، فقال لي: كيف ذلك، وأنا شخصيا لا أحمل الدكتوراه، فقلت له: إنك فوق الدكتوراه بدرجات عالية، ولكن إن مدّ الله في عمرك فسوف ترى ذلك، فكان الأمر كما قال السيد مصطفى الغربي، فكل الدكتورات التي نوقشت في الجامعات والتي تتعلق باللغة العربية أو الأدب العربي أو غير ذلك من المعارف، سواء تعلقت بسوس أو بالمغرب عموما إلا وتستقي من معين المعسول .»

ومن هذه الزاوية كذلك نظر الشاعر محمدا العثماني الذي كان أكثر تقديرا لأعمال العلامة السوسي، وأكثر شعورا بأهمية منجزاته خاصة موقفه من التاريخ، وموقف التاريخ منه، حينما قال في قصيدته الفارسية الرائقة :

وفـــاء يقوم اليوم قطرك يذكر ... قيامك بالإعلان عنه ويشكر
يناجيك إجلالا ويحمل باقة ... يضمخ مسراها ثنـاء معطر
تداعت نواديه لتشهد ما سدت ... يداك لـه من مَعْلم لا يُقدّر
فمن غمرة التاريخ قمت بنشله ... وفي زحمة الأخطار كنت تشمّر
تسابق أحداث الزمان ولم تكن ... لإنـذاره ترتـاع وهو يزمجر

